أدونيس بين التراث الشعري والحداثة

الأستاذة عزي مريم
جامعة الجيلالي ليابس بسيدي بلعباس

أدرك الفكر العربي مدى التخلّف و السبات و الجمود الفكري الذي عاشته البيئة العربية في ظل الحماية العثمانية؛بمجرّد إصطدامها بالفكر الغربي الذي كان يشهد تطوّرا ملحوظا و تقدّما باهرا "حيث أدى هذا الصدام العنيف إلى خلخلة كافة الموازين في الوطن العربي وهزّ النفوس هزّا عاصفا مما أدى إلى ردود فعل شتى " 1إثر هذه الصدمة قرّر العرب إعادة النظر في الماضي و الحاضر و التطلّع إلى مستقبل أفضل ؛فكان هذا القرار خطوة أولى دفعت الفكر العربي نحو الأمام،خطوة كانت بمثابة إعادة الحساب و ترتيب الأوراق .

كان تعامل العرب مع التراث وفق أربع تيارات هامة:أولها التيار الذي ناد بالعودة إلى الماضي ،وتيار ثاني دعا إلى نبذ الماضي نهائيا والإعتماد على ما أنتجه الغرب،أما التيار الثالث فقد دعا إلى إجراء عملية تشريحية توفيقية بين قيّم الماضي ومعطيات الحضارة الغربية الإيجابية و تيار رابع نظر إلى التراث الثوري على أنّه قوى حيّة . 2 فما مفهوم هذا التراث الذي إختلفت فيه وجهات النظر و تضاربت حوله الآراء؟

يُعرّف مصطفى بيومي عبد السلام التراث في كتابه **دوائر الاختلاف** "على أنّه منتجٌ معرفي ينتمي إلى سياق تاريخي معيّن وإلى زمن تاريخي معيّن أيضا "3 تراث جعل النّقاد العرب يقبلون على قراءته من جديد و يعيدون النظر فيه "لمجاوزة الحاضر المتخلّف في جميع القطاعات وعلى جميع المستويات ،أملا في المستقبل " 4 فكانت عودة من أجل تخطي واقع مرير وتطلّع إلى مستقبل أكثر إشراقا وإزدهارا .

إعادة قراءة التراث ومحاولة فهمه فهما مغايرا وتأويلا صحيحا جعله يتمركز "بين حدثين حدث إنتاجه وحدث إعادة إنتاجه، حدث الكتابة وحدث القراءة وإذا كان حدث إنتاجه وصنعه قد تمّ في زمن تاريخي معيّن، فإنّ حدث قراءته ينطوي على زمن مغاير "5 هكذا أدّت عمليّة إعادة قراءة التراث دورا هاما في تغيير رؤية الفكر العربي للماضي فتغيرت قضية التراث "من كونها قضية الماضي لذاته أو كونها إسقاطا للماضي على الحاضر إلى كونها قضية الحاضر لنفسه ،أي كون الحاضر صيرورة تتفاعل في داخلها منجزات الماضي وممكنات المستقبل"6 بمعنى أنّ الحاضر أصبح هو نفسه حلقة وصل تربط بين حلقتي الماضي والمستقبل ؛حلقة لا يمكنها التخلي عن أيّ حلقة منهما سواءً التي سبقتها أم التي تليها.

إثر هذا التحوّل الذي شهده الفكر العربي- بتغيّر نظرته إلى الماضي- عبّر النّقاد عن أرائهم حول التراث، حتى أنّ من الشعراء العرب من كان لهم باعا في ذلك؛ شعراء عبّروا عن موقفهم من التراث الشعري بطريقتين؛ طريقة إتخذت من الكتابات النّقدية

سبيلا إلى ذلك وطريقة جعلت من القصائد الشعرية منبرا يمرّر الشاعر من خلال موقفه ،و أدونيس* واحد من هؤلاء الشعراء الذين سلكوا هذا النهج.7 فكتاباته النقدية و الشعرية فيها من المقولات والآراء ما يجعل المتلقي يقف على حقيقة موقفه .

يُعرف أدونيس التراث على أنّه "القوى الحيّة التي تدفعنا بإتجاه المستقبل، فما يهمّنا من التراث اليوم (...)يكمن في العناصر التراثية التي تحتفظ بالقدرة على إضاءة الحاضر والمستقبل هكذا يجب أن نفهم التراث بمعناه الكياني لا التاريخي الماضوي ." 8 إذا أدونيس لا ينظر إلى التراث على أنّه حقبة زمنيّة مضت يجب الإرتباط بها بل ينظر إليه على أنه طاقة تنير الحاضر و المستقبل و مخزون معرفي يدفع دوما إلى الأمام.

شأنه شأن أيّ مثقّف عربي" تأسّس لديه وعي جديد مؤداه أنّ الماضي(...) ليس خيرا كله هو مزيج من الخير و الشر، من الخطأ و الصواب من عناصر التقدّم وقوى التخلّف " 9 هكذا تغيّرت نظرة العربي إلى التراث؛ فلم يعد ينظر إليه على أنّه الكل المتكامل الذي لا يشوبه قبح بل أصبح ينظر إليه على أنّه منتج إنساني يضمّ الجيّد و الرديء في آن واحد.

منتجٌ جعل أدونيس يُقبل على أمور و يتجاوز أمورا أخرى فهو القائل:"حين أخذت أحارب الماضي لم أكن أحارب الشعر القديم وإنّما كنت أحارب الموقع التقليدي وحين أخذت أعود بالمقابل إلى الشعر القديم لم أكن أعود إلى الماضي التاريخي ومواقعه التقليدية وإنّما كنت أعود إلى مستويات في الوعي وتصوّرات للحياة والإنسان و العالم وحالات نفسية وروحيّة" 10عن أيّ موقع تقليدي يتحدّث أدونيس؟ أيتحدّث عن مكانة الشعر العربي القديم كونه أصلا لكل إبداع ،وعن إعتباره النموذج الذي يجب على كلّ مبدع أن يحاكيه فيعتبره المثال الذي يقتدي به و الأصل الذي ينسج على منواله؟

يُوضّح أدونيس موقفه من الشعر العربي القديم في كتابه **زمن الشعر** فيقول " إنّا لا نرفض الشعر القديم من حيث هو شعر ،بل نرفض أنّ نبدع ضمن أطره الفنيّة و الثقافية التي صدر عنها" 11هذا يعني أنّ أدونيس يرفض النظرة التقديسية للشعر العربي القديم ولا يرفضه جملة "فالماضي لم يعد يهمّ الشعر العربي الجديد كقدسية مطلقة نهائية ،وإنّما أصبح يهمّه بقدر ما يدعوه إلى الحوار معه وبقدر ما تبدو الطريق التي فتحها طريقنا نحن اليوم وبقدر ما يضيء ونحن نسير في عتمات الحاضر صوب المستقبل ." 12 إنّ عودة أدونيس إلى الماضي ترى ما يتجاوز التاريخ ؛ترى الأعمال الشعرية مستقلة عن الظروف التي نشأت فيها تنظر إلى الإبداع بغضّ النظر عن أي فترة نشأ فيها .

أعمالٌ وجد أدونيس نفسه مشدودة إليها وشخصيات تراثية إستحوذت على إهتمامه فإعتبرها مثلا له فهو القائل :"أعتبر مثلا طرفة بن العبد وعروة بن الورد وإمرئ القيس وذا الرمّة وأبا تمام وأبا نواس، والمتنبي والشريف رضا و النفري ،وكثرين غيرهم يعيشون حتى بطرائق تعبيرهم في كثير من قصائدهم في عالمنا الشعري الحاضر، الذي نسميه حديثا (...) ذلك لأنّ نتاجهم يكتنز بهاجس البحث عن العالم الجديد وعن واقع آخر فيما وراء الواقع "13 هكذا بلغ إهتمام أدونيس بهذه الشخصيات وبأعمالها الشعرية إلى درجة الإعجاب ؛إعجاب جعله يعتبرها مثلا له ،لا لشيء سوى لأنّها كانت شخصيات مفعمة بروح التساؤل والتطلّع من أجل عالم أفضل كانت تراه هدفا ؛أي بمعنى آخر كانت شخصيات تراثية لها رؤيا خاصة تميّزها في مجال الشعر عن غيرها.

أمّا عن تجربة أدونيس النّقدية فقد إعتبرها محمد فلاح متأثّرة "بمصادر عدّة أولّها الشعر العربي الكلاسيكي ممثّلا في شعراء عرب دون غيرهم،إختارهم في قراءاته الشعرية وهؤلاء الشعراء ليسوا إلا بشار بن برد، ويأتي بعده أبو الطيب المتنبي الذي صهر أفكار عصره وفلسفات معاصريه في شعره ،وأبو العلاء المعري (...) وأبو نواس " 14 هذه بعض الشخصيات التي تأثّر بها أدونيس فتناول أعمالها في أعماله الشعرية و النقدية معا؛ شخصيات حملت على عاتقها لواء التجديد فإستطاعت أن تجد لنفسها حيّزا في خطابه النقّدي .

أثارت علاقة التراث بالحداثة جدلا كبيرا بين المفكرين و الشعراء فإختلفت الآراء وتباينت المواقف "فمنهم من ذهب إلى أنّه يمكننا أنّ نكون معاصرين و حداثيين إذا كنّا تراثيين وأنّ معاصرتنا في تجديد تراثنا، ومنهم من ذهب إلى أنّ معاصرتنا وحداثتنا في اللحاق بالآخرين بأيّ وسيلة وبأيّ ثمن ."15 فضمن أيّ فريق يمكن تصنيف أدونيس بوصفه شاعرا ومفكّرا وناقدا حداثيا؟

قبل الإجابة على هذا السؤال لابد من الوقوف أوّلا عند مفهوم الحداثة كما حدّده أدونيس "فالحداثة تعني التغاير و الخروج عن النمطية ،والرغبة في خلق المغاير(...)وهي ليست إبتكارا غريبا ،لقد عرفها الشعر العربي منذ القرن الثامن،أي قبل بودلير،و ملارميه ورمبو بحوالي عشرة قرون وهي ليست مستوردة وليست فطرا، وإنّما هي ظاهرة عميقة في الشعر العربي" 16 هذه هي الحداثة كما حدّدها أدونيس؛ تغيير أصيل عرفه التراث الشعري العربي منذ القرن الثامن .

إلا أنّ هذه الحداثة لا تتعارض و القديم وإنّما هي رحلة تكملة لما بدأه الأولون" فما ينبغي أن نتعلمه ممن أنتجوا لنا المعرفة الماضية إنّما هو ضرورة إنتاج رؤية جديدة ونظام جديد من المقاربة و المعرفة ،هو أن نكمّلهم لا بتكرارهم ،بل من اللهب الذي حرّكهم لهب السؤال والبحث(...) وهذا يقضي سؤالهم و مواجهتهم ،إذ دون ذلك لا نقدر أن ننتج معرفة عربية تترابط في سياق تاريخي واحد." 17 هكذا يربط أدونيس بين حداثة يؤمن بها على الصعيدين —الإبداعي و النقدي– وتراث يسعى أن يكون إستمرارا لما ينادي به.

المتأمل لكتابات أدونيس النقدية ولاسيما ما تعلّق منها بالحداثة و التراث الشعري يقف على حقيقة موقفه من كليهما فهو موقف" واقعي مستنير يهدف إلى ربط إيجابيات الماضي بإيجابيات الحاضر." 18 وهي بذلك نظرة معتدلة لا تتعصّب لا للتراث على حساب الحداثة ،ولا تولي الحداثة أهمية قصوى على حساب التراث الشعري .

ذلك أنّ الحداثة التي ناد بها أدونيس لا ترفض التراث الشعري وإنّما تستمدّ وجودها من جوهره وعمقه ،فالأصالة في نظره " ليست نقطة أو موقعا في الماضي تجب العودة إليه(...)وإنّما هي الطاقة الدائمة على الحركة والتجاوز في إتجاه المستقبل، أي في إتجاه عالم يتمثّل الماضي فيما يستشرف مستقبلا أجمل وأغنى ."19 لذلك هو يرفض فكرة العودة إلى التراث الشعري والإكتفاء بعمليتي إحيائه و التمحور حوله، دون مساءلته و الغوص في مكوناته من أجل إبراز قدراته– في الوقت نفسه– يرسم طريقا خاصة يحقّق من خلالها التميّز "فالتمحور حول الماضي إنّما هو موت آخر،وإنّه لا مجال للفكر العربي والإنسان العربي أن يحيا حقاّ إلا إذا تمحور على العكس حول المستقبل." 20 لكن هذا القول لا يعني أبدا أنّ أدونيس يدعو إلى الإنفصال عن التراث الشعري وإنّما هو يدعو إلى عدم الإنبهار به والتعامل معه على أنّه أمر مقدّس لا يصّح تجاوزه أو الإلتفات إلى غيره .

يعتبر أدونيس أنّ المجدّدين هم أكثر صلة بمن سبقهم " فالعلاقة بين المجدّدين وأسلافهم القدامى أعمق جدّا منها بين المقلّدين وهؤلاء الأسلاف ،فالمجدّدون لم يلحّوا على التجديد إلا لأنّهم أجادوا فهم أسلافهم ،والواقع إنّنا اليوم نفهم آثارنا القديمة أكثر من أيّ وقت مضى والصلة بيننا و بين أسلافنا جوهرية لا شكلية عميقة لا سطحية" 21 مقولة أدونيس هذه ترى في الحداثة العربية إمتدادا للتراث العربي؛ ففهم التراث أو ما أسماه بالماضي كان سببا للدعوة إلى التجديد لأنّ "حداثة أي أمّة إمتداد لتاريخيتها وهويّتها، ويفيد التراث إفادة كبيرة من وسائل الحداثة(...) ولذلك من الخطأ أن نفصل أو نجزئ حركة التاريخ أو نضع الحداثة في مواجهة التراث و الأصالة ،فهما يسيران في خطّ ذي إتجاه واحد لا عكس." 22 هكذا ينظر أدونيس إلى الحداثة بإعتبارها حلقة وصل بين الماضي و الحاضر وكذا المستقبل .

لأنّ التاريخ لا يستطيع تغييب أيّ حلقة من الحلقات التي أنتجها الفكر الإنساني في فترة من فتراته حتى أنّ الشعر نتاج إنساني وعمل إبداعي "يخطو إلى الأمام فما يلتفت إلى الوراء ذلك لأنّه الحرية التي لا قيد عليها ،ولأنّه الحرية يعود إلى ما أنجزه دائما ،ويتأثر بما أنجزه لأنّه في تحرّك دائم بين تذّوق ما مضى والإستبصار فيه و الرغبة في إبتكار شيء آخر يتذوّقه بشكل مختلف، فالإبداع غوصٌ في نقطة من الذات يلتقي فيها ما كان بما يكون،عود و بدء تذكر ونسيان في لحظة واحد." 23 لذلك أصبح من غير اللائق أن تقاس علاقة الإنسان بتراثه أو حداثته بمنطق الرفض و القبول أو الصلة و الإنفصال لأنّ العلاقة تشهد ترابطا و تكاملا "فليست المسألة مسألة إنفصال وتأصّل وإنّما هي مسألة إبداع وتقليد ولا يجوز أن يُبحث التراث بمنطق الرفض أو القبول ،وإنّما هو مناخ للتأمل وإعادة النظر والإستبصار." 24 من خلال ما سبق ذكره يمكن القول إن رؤية أدونيس للتراث تجعل هذا الأخير في مساءلة مستمرة كما تجعله ميدانا خصبا للبحث وإعادة النظر، لاسيما أنّ المعارف النقدية و الأدوات الإجرائية اليوم إزدادت ثراءً و تنوعا .

الهوامش:

1-أزراج عمر ،أحاديث الفكر و الأدب،دار البعث للطباعة و النشر، قسنطينة(الجزائر) ،ط. 1،1984،ص.7.

2- ينظر المرجع نفسه ، ص.(17...21) .

3-مصطفى بيومي عبد اللام، دوائر الاختلاف – قراءات التراث النقدي-، دار فرحه للنشر والتوزيع،المنيا(مصر)، د.ط، 2003، ص.3.

4- المرجع نفسه، ص, 27.

5- المرجع نفسه، ص. 27.

6- حسين مروة، تراثنا...كيف نعرفه؟، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت(لبنان)، ط.1، 1985،ص.322.

* إسمه الأصلي علي أحمد سعيد و أدونيس لقب أطلقه على نفسه ليلفت إليه انتباه المجلات التي كان يريدها أن تنشر له بعد فشل عدّة محاولات قدّمها باسمه الأصلي ؛أدونيس هو أحد ألقاب الآلهة، ،يصوّر في الأسطورة شابا رائع الجمال .للمزيد من المعلومات ينظر نجية دربال ومحمد الحبيب السلامي،ساعة صفاء،الشركة التونسية ، قرطاج (تونس)، د،ط، 1983، ص. 91.

7- ينظر إحسان عباس، إتجاهات الشعر العربي المعاصر، دار الشروق، عمان (الأردن)، ط.1، 2001، ص.244.

8- أدونيس، فاتحة لنهايات القرن – بيانات من أجل ثقافة عربية -، دار العودة ، بيروت (لبنان)، ط.1، 1980، ص. 244.

9- نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (المغرب)، ط.7،2005، ص. 277.

10- أدونيس، زمن الشعر، دار الساقي ،بيروت (لبنان)، ط.6، 2005،ص,53.

11- المصدر نفسه، ص.255.

12- أدونيس ،مقدمة للشعر العربي ،دار العودة، بيروت(لبنان)، ط.4،1983، ص. 134.

13- هاني الخير، أدونيس – شاعر الدهشة وكثافة الكلمة-،دار فليس، الجزائر، ط.1، 2008، ص.5.

14-محمد العربي فلاح، أدونيس تحت المجهر- محاولة لتسليط الضوء على زوايا فكر أدونيس المظلمة-،دار الخلدونية ،الجزائر ط.1، 2008، ص. (99، 100) .

15-خليل موسى ،الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر، مطبعة الجمهورية،دمشق(سوريا)،ط.1، 1991، ص. (22، 23) .

16- أدونيس، فاتحة لنهايات القرن- بيانات من أجل ثقافة عربية-، ص. 326.

17- المصدر نفسه،ص. 337.

18- عبد العزيز مقالح، ثلاثيات نقدية، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع،بيروت (لبنان)،ط.1، 2000، ص. 123.

19- المصدر السابق، ص. 337.

20- أدونيس، الثابت و المتحول-الأصول- دار العودة، بيروت(لبنان)، ط.1، 1974، ج.1، ص. 34.

21- أدونيس ، مقدمة للشعر العربي، ص. 136.

22- خليل موسى، الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر، ص. 6.

23- أدونيس، زمن الشعر، ص. 53.

24- أدونيس ،فاتحة لنهايات القرن- بيانات من أجل ثقافة عربية -، ص. 211